

الفصل العاشر

التعاليم والهزيمة

ومضت الأيام في المدينة وعلى الرغم من العلاقات المعقدة بين القبائل والحاجة إلى اليقظة الدائمة، واصل محمد ﷺ الدعوة في ضوء ما ينزل عليه من وحي، وكان يتميز دائماً بالجمع بين الإخلاص التام لمبادئه والدفء الإنساني الذي يشع دائماً من وجوده.

وكان الصحابة يتلهفون على صحبته حتى إنهم كانوا يتبادلون الأدوار في صحبته، بغية قضاء أكبر وقت ممكن معه، يستمعون إليه ويتعلمون منه، كانت محبتهم له تتسم بشدة العمق والإخلاص، وكان النبي لا يفتأ يدعوهم إلى تعميق مودتهم ومحبتهم له في الله ونور محبته الأسمى.

اللطف، والاهتمام، والحب

وقد ظل محمد ﷺ في حياته اليومية، برغم انشغاله بالهجمات والخيانات وتعطش أعدائه للثأر، يهتم بالتفاصيل الصغيرة في الحياة، وبتوقعات من حوله، ويجمع دائماً بين الصرامة وسماحة الأخوة والغفران، وكان أصحابه وزوجاته يرونه يصلي الساعات الطوال ليلاً، بعيداً عن الناس، وحده في الصلوات الخافتة والدعوات التي تغذي حوارهِ مع الواحد الأحد، وكانت زوجته عائشة - رضي الله عنها - تدهش منه وتعجب به: «لَمْ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فأجابها النبي ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» ولم يكن يطلب

من أصحابه القيام بالعبادات والصيام والأذكار التي كان يفرضها على نفسه، بل كان على العكس يقول لهم بالاعتدال وتجنب الإفراط، وقد قال لبعض الأصحاب الذين كانوا يريدون العزوف عن حياتهم الجنسية ويصلّون الليل كله أو الصيام المتواصل (من مثل عثمان بن مظعون أو عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما)، فقال لهم: «لا تفعلوا ذلك! صوموا وأفطروا. وصلوا وارقدوا. إن لنفسكم عليكم حقاً وإن لعيونكم عليكم حقاً وإن لزوجاتكم عليكم حقاً، إن لضيوفكم عليكم حقاً»⁽²⁾. مرة قال وردد قوله ثلاث مرات: «هلك المتطعون»⁽³⁾. وفي حديث آخر: «القصد القصد تبلغوا»⁽⁴⁾.

وقد ظل يسعى إلى طمأننة ضمائر المؤمنين الذين كانوا يخافون من نقاط ضعفهم وتقصيرهم، في أحد الأيام، رأى الصحابي حنظلة الأسدي أبا بكر - رضي الله عنهما - وشكا له بأنه على يقين من أنه منافق (نافق حنظلة) لأنه كانت تتنابه حالات متناقضة: ففي حضرة النبي ﷺ كان يكاد يرى الجنة والنار، ولكن عندما يكون بعيداً عنه، فإن زوجته وأولاده وشؤون الدنيا تجعله ينسى ذلك، وقد اعترف أبو بكر ﷺ بأنه يعاني من مشاعر مماثلة، فذهب إلى النبي ﷺ ليسأله عن وضعهما الذي يبعث الوحشة والكآبة في حياتهما الروحية، وقد بسط حنظلة للنبي ﷺ طبيعة شكوكه فأجابه محمد ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصاغتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»⁽⁵⁾. إنها الطبيعة البشرية، التي تتذكر وتنسى والتي تحتاج إلى التذكر لأنها تنسى، لأن البشر ليسوا ملائكة.

وفي مناسبات أخرى، كان يفاجئهم بالقول بأن صدق الصلاة وفعل الخير والقيام بأي عمل عبادة تتجلى في قلب احتياجاتهم البشرية، في الاعتراف المتواضع ببشريتهم. «فالأمر بالمعروف صدقة والنهي عن المنكر صدقة. وفي بضع أحدكم صدقة». فسأل الأصحاب متعجبين: «يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر؟» فأجاب: «أرايتم إن وضعها في حرام ألا يكون عليها وزر؟ ولهذا فإنه يؤجر على الجماع المشروع»⁽⁶⁾. وهكذا فقد كان يدعوهم أولاً يحرّموا على أنفسهم أو يحتقروا دوافعهم البشرية ويعلمهم أن جوهر الأمر هو ضبط النفس، الجانب الروحي يتمثل في القبول والتحكم في الغرائز على السواء تلبية رغباتهم الطبيعية في ضوء مبادئهم هو صلاة، وليس عملاً سلبياً ولا نفاقاً.

كان النبي ﷺ يكره أن يدع أصحابه نهياً لمشاعر الذنب التي لا طائفة لها، كان لا يفتأ يقول لهم بالألا يتوقفوا عن اللجوء إلى الواحد الأحد، الرحمن الرحيم، الذي يدخل الجميع في رحمته وكرمه والذي يحب القلوب الصادقة التي تدم على ذنوبها وتتوب إليه، وهذا هو المعنى العميق للتوبة المتاحة لمن يتوب بصدق إلى الله إذا أخطأ أو ارتكب هفوة أو ذنباً، الله يحب الرجوع إليه ويغفر ويظهر من الذنوب، وقد طبق النبي ﷺ نفسه ذلك في عدة مناسبات، ففي يوم جاء بدوي وبال في المسجد. فاندفع إليه الصحابة يريدون ضربه. فمنعهم النبي ﷺ وقال: «دعوه، وصبوا دلواً من الماء على بوله»⁽⁷⁾.

عن عائشة - رضي الله عنها - أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال له: «لقد هلكْتُ!» وعندما سأله النبي ﷺ عن السبب اعترف الرجل بأنه «أتى زوجته في نهار رمضان». فأجاب النبي ﷺ: «تصدق!» فأجاب الرجل: «ما

عندي ما أتصدق به!» ثم جلس قريباً من النبي ﷺ. وبعد مدة قصيرة جاء رجل يحمل طعاماً هدية لمحمد ﷺ (8). فتأذى النبي ﷺ: «أين الرجل الذي هلك؟» فأجاب الرجل الأول الذي اعترف بخطئه: «هأنذا» فقال له النبي ﷺ: «خذ هذا الطعام وتصدق به». دُهِش الرجل وقال: «إلى من هو أفقر مني؟ لا يوجد لدى أهلي ما يأكلونه!» فأجاب النبي ﷺ مبتسماً: «كلوه أنتم، إذاً» (9).

هذا اللطف وهذه الكياسة كانا يمثلان جوهر تعاليمه، كان لا يفتأ يقول: «اللَّهُ رفيق يحب الرفق في كل شيء» (10). وقال أيضاً: «إنه يعطي على الرفق ما لا يعطيه على العنف أو أي شيء آخر» (11). وقال لأحد أصحابه: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة» (12). وكان يدعو جميع أصحابه إلى مواصلة الجهد ليكونوا رفقاء وسِمَاح. «إذا سمعتم عن أخيك شيئاً لا ترضونه فالتمسوا له من واحد إلى سبعين عذراً، فإن لم تجدوا أي عذر فقولوا إن له عذراً لا نعرفه» (13).

أقام عدد من الذين دخلوا حديثاً في الإسلام -الذين لا مأوى لهم وفي كثير من الأحيان ليس لديهم ما يأكلونه- حول المسجد، قرب مسكن النبي ﷺ، وكانوا معدمين (عن عمد في بعض الأحيان، إذ إن بعضهم كانوا يريدون أن يعيشوا حياة الزهد خالية من الممتلكات الدنيوية)، وكان طعامهم يعتمد على صدقات المسلمين وهداياهم، وأخذ عددهم يزداد، وسرعان ما دعاهم المسلمون بعبارة «أهل الصفة» (14). وكان النبي ﷺ شديد الاهتمام بوضعهم، وكان يظهر لهم تعاطفاً متواصلاً، كان يصغي

إليهم ويجب عن أسئلتهم ويلبي احتياجاتهم، وكان من خصائص شخصه وتعاليمه، إزاء أهل الصفة، وغيرهم من جماعته، أنه عندما كان يُسأل عن مسائل تتعلق بالروح أو الإيمان أو التربية أو الشك، كان يقدم إجابات مختلفة عن الأسئلة نفسها، حيث إنه كان يأخذ في الاعتبار التركيبية النفسية للسائل وخبرته وذكاءه.

كان المؤمنون يشعرون بأنه يراهم ويحترمهم ويفهمهم ويحبهم. وقد كان يحبهم في واقع الأمر ويقول لهم ذلك.

ثم إنه كان ينصحهم بأن يتذكروا الإفصاح عن محبتهم لبعضهم. «إذا أحب شخص أخاه أو أخته فليقل له إنه يحبه» (15). وفي يوم ما أخذ بيد معاذ بن جبل وهمس: «يا معاذ، واللّه إنني أحبك وأنصحك، يا معاذ، بآلا تتسى أن تقول عقب كل صلاة: اللهم، أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» (16). بهذا أعطي الشاب حباً ودرساً روحياً وكان الدرس هو الذي رسخ بعمق لأنه كان محفوظاً بذلك الحب.

نصارى نجران

إن تاريخ زيارة نصارى نجران لمحمد ﷺ غير معروف على وجه التأكيد، بعض المصادر، مثل ابن هشام، يضعها قبل معركة بدر، بينما يقول آخرون إنها جرت، حسب نص يعزى إلى ابن إسحاق (وكذلك استناداً إلى بعض الأحاديث والتسلسل التاريخي لبعض آيات القرآن ذات الصلة بالحدث)، بين معركة بدر ومعركة أُحد، غير أن التاريخ الدقيق لا يسهم كثيراً في خاتمة المطاف. إن الشيء الجوهرى هو طبيعة اللقاء والغرض منه.

لقد زار النبي ﷺ وفد من أربعة عشر زعيماً دينياً من نجران لسؤاله عن الدين الجديد، وعن إيمانه، وبالطبع عن مركز عيسى عليه السلام في الإسلام⁽¹⁷⁾. كانت تعيش في الجزيرة العربية قبائل نصرانية عديدة ويبدو أن معظمهم كانوا يتبعون المذهب الأرثوذكسي، الذي كان مركزه في القسطنطينية، أجاب النبي ﷺ عن أسئلتهم، مشيراً إلى الصلة بين الدينين، حيث إن الإسلام كان استمراراً لرسالة النبي عيسى عليه السلام، لكنه رفض رفضاً باتاً عقيدة الثالوث، فدعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد وإلى قبول الإسلام بوصفه آخر وحي السماء، وقد روى القرآن بشكل تفصيلي تلك المقابلة فضلاً عن نقاط التشابه والاختلاف بين التعاليم النصرانية والإسلامية⁽¹⁸⁾. وقد ورد في بداية السورة الثالثة (آل عمران) الإطار المرجعي للإسلام:

﴿الَمْ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ (١٩)﴾.

يؤكد الوحي الاعتراف بالكتب السماوية السابقة التي أنزلت للناس من خلال موسى وعيسى - عليهما السلام - ويضيف بأن القرآن هو جزء من الدين السماوي ذاته، ثم يفصل القرآن لاحقاً تفاصيل الدعوة الموجهة إلى النصارى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ (20).

إلى جانب تأكيد وحدانية الله ورفض الثالوث، هذه الآية تشجب مركز ودور الكهنة في النصرانية، فهنا، كما في آيات أخرى أو أحاديث نبوية، تدل الإشارة إلى «الأرباب» المحتملين على أنهم الذين يضعون أنفسهم وسطاء بين الله والناس وبذلك يدعون سلطات دينية غير مشروعة أو تتطوي على الغلو.

رفض وفد نجران قبول رسالة النبي، وقبل المغادرة، أراد أفراد الوفد الصلاة داخل المسجد، وظن الصحابة الموجودون أنه يجدر بهم معارضة ذلك، لكن النبي ﷺ تدخل وقال: (دعوهم يصلوا!) (21) فصلوا في المسجد متوجهين إلى الشرق، وقبل مغادرتهم، طلبوا من النبي ﷺ أن يرسل مبعوثاً يعيش بينهم ويجيب عن أسئلتهم، وإذا دعت الحاجة، يحكم بينهم في بعض شؤونهم، وتم اختيار أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه وقد اعترف عمر بن الخطاب رضي الله عنه لاحقاً أنه فشل في لفت انتباه النبي ﷺ ليرسله لهذه المهمة.

عاد الوفد إلى موطنه، كان النصارى قد جاؤوا إلى المدينة وسألوا عن الرسالة واستمعوا إلى محتويات الدين الجديد، وطرحوا حججهم وصلوا داخل المسجد ذاته، ثم عادوا دون أن يتعرضوا لأي أذى وظلوا نصارى يتمتعون بكامل الحرية.

ولم ينس الصحابة الأول موقف النبي ﷺ. فقد استخلصوا منه جوهر الاحترام الذي يتطلبه الإسلام من المؤمنين، الذين دعاهم إلى أن يذهبوا إلى أبعد من التسامح وأن يتعلموا ويستمعوا ويتفهموا كرامة الآخرين، إن الأمر ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ يتجلى في هذا الموقف الذي يحترم التنوع (22).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْقَرُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (23).

إن الاحترام الذي يتطلبه الله أكثر من التسامح (يستند إلى علاقة مساواة ومعرفة⁽²⁴⁾). الله وحده هو الذي يعلم ما في الصدور ومدى ورع كل فرد، ويذكر القرآن في موضع آخر ويعترف بصدق سعيهم المتواضع وطلبهم لله، على الرغم من أنه يستنكر ويرفض وضع الكهنة وأهل المقامات الدينية.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٨٢) (25).

تنص هذه الآية من السورة الخامسة (آخر وصية ينزل بها الوحي) على شروط العلاقة المتميزة بين المسلمين والنصارى، استناداً إلى صفتين أساسيتين: الصدق والتواضع. فدعوة النصارى، وكذلك بقية أصحاب التقاليد الروحية والدينية الآخرين للاجتماع والمشاركة والعيش معاً لما فيه منفعة الطرفين ستظل دائماً تستند إلى الشروط الثلاثة الآتية: محاولة التوصل إلى فهم الطرف الآخر، الصدق (ومن ثم الأمانة) خلال المقابلة والنقاشات، وأخيراً، تعلم التواضع بشأن اعتقاد كل طرف بأنه يملك الحقيقة، تلك هي الرسالة التي حملها النبي ﷺ في علاقته مع المؤمنين

من الأديان الأخرى، وكما يتضح فإنه لم يتردد في مناقضة المعتقدات النصرانية (مثل الثالوث أو ودور القسيسين)، لكن مواقفه كانت تستند في النهاية إلى المعرفة والصدق، والتواضع، وهي شروط الاحترام الثلاثة، وقد غادروا دون قيود واستمر الحوار مع مبعوث النبي ﷺ.

ابنة، زوجة

كانت حياة النبي ﷺ تتسم بالتواضع: كان مسكنه خالياً من الأثاث وكثيراً ما لم يكن لديه سوى بضع تمرات للأكل، ومع ذلك فقد ظل يساعد الفقراء الذين كانوا حوله، لاسيما أهل الصفّة، الذين كانوا يقطنون قريباً من مسكنه، وعندما كان يتلقى الهدايا فإنه كان يجود بها وكان يقوم على الفور بتحرير الرقيق الذين كانوا يرسلون إليه كهدايا في بعض الأحيان: فقد فعل ذلك مع الرقيق أبي رافع الذي أرسله له عمه العباس عندما عاد إلى مكة بعد أن تم تحريره، ورغم ازدياد أهمية دوره في مجتمع المدينة ومسؤولياته العديدة فقد حافظ على هذه البساطة في حياته، وفي الطريقة التي كان يسمح بها لأفراد مجتمعه الاتصال به، لم يكن يملك شيئاً، كان يسمح للنساء والأطفال والرقيق وأقرب الناس بأن يقتربوا منه ويخاطبوه. فقد كان يعيش بينهم وكأنه واحد منهم.

كانت ابنته فاطمة - رضي الله عنها - قريبة جداً منه، وقد تزوجت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ابن عم النبي ﷺ، وانتقلت لتسكن قرب مسكن أبيها وكانت شديدة الاهتمام بالفقراء بمن فيهم أهل الصفّة. وعندما يكون النبي ﷺ في بيته أو بين الناس وتأتي إليه ابنته أو تدخل الغرفة، كان يقف لها ويحييها، ويظهر لها أمام الملأ الاحترام الشديد والحنان، وكان أهل

المدينة وأهل مكة يندهشون من سلوكه إزاء ابنته، التي لم تكن تحظى، في تقاليدهم، بمثل تلك المعاملة، وكان النبي ﷺ يقبل ابنته ويتحدث إليها ويسر لها ويجلسها بجانبه، دون أن يعير أي اهتمام للتعليقات أو حتى الانتقادات التي يمكن أن يثيرها سلوكه. فقد قبل حفيده الحسن، ابن فاطمة - رضي الله عنها - ذات مرة أمام جماعة من البدو الذين ذهلوا لهذا السلوك، وقد أعرب واحد منهم - الأقرع بن حابس - عن صدمته وقال: «لدي عشرة أطفال ولم أقبل أحداً منهم أبداً». فأجاب النبي ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم» (26). فمن خلال القدوة الصامته وملاحظاته، كان النبي ﷺ يعلم شعبه حسن الأخلاق واللفظ واللين واحترام الأطفال، ويبيد الاحترام والانتباه للنساء. وقد قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (27).

كانت فاطمة - رضي الله عنها - تتلقى تلك المحبة وتعاليم الإيمان والحنان من أبيها وتشرها حولها من خلال أعمالها إزاء الفقراء، على أنها في أحد الأيام تحدثت إلى زوجها بشأن ما تعانيه من مشقة: فهما مثل أبيها لا يملكان شيئاً وكانت تشعر بمشقة زائدة في إدارة حياتها اليومية وأسرتها وطفليها، فأشار عليها زوجها بأن تذهب إلى أبيها وتطلب مساعدته، فقد يعطيها أحد الأرقاء الذين أرسلوا له هدايا، فذهبت إليه، لكنها لم تجرؤ على الإفصاح عن طلبها، كان احترامها لوالدها أعمق من أن يسمح لها بذلك، وعندما عادت صامته صفر اليدين قرر علي ﷺ أن يذهب معها وأن يطلب هو نفسه المساعدة من النبي ﷺ. أصغى لهما النبي ﷺ وأخبرهما بأنه لا يستطيع عمل أي شيء لهما، وأن وضعهما أفضل بكثير من وضع أهل الصفة الذين كانوا بحاجة ماسة إلى مساعدته. فما عليهما سوى الصبر. فعادا حزينين وقد خاب أملهما: فعلى الرغم من أنها ابنة النبي ﷺ وهذا ابن عمه، فلم يكن بوسعهما طلب أي امتياز اجتماعي.

في المساء جاء النبي ﷺ إليهما. فأرادا الوقوف لاستقباله، لكنه دخل وجلس بالقرب من فراشهما. وهمس قائلاً: «هل أدلكما على شيء أفضل مما طلبتماه؟» فقبلاً عرضه، فقال لهما: «إنها كلمات علمني إياها جبريل وعليكما ترداها عشر مرات بعد كل صلاة: سبحان الله والحمد لله والله أكبر» وقبل أن تأويا إلى الفراش عليكما تكرر كل من هذه العبارات ثلاثاً وثلاثين مرة⁽²⁸⁾. لقد أجاب طلب ابنته المادي وهو جالس بقرب فراش ابنته ليلاً شديد الاهتمام باحتياجاتها، بأن أسرَّ إليها شيئاً جاءه من عند الله: علّمها شيئاً روحياً وصلنا عبر العصور ويقوم به كل مسلم يعتبر أنه خاص به في قلب حياته اليومية، كانت فاطمة - رضي الله عنها - مثل زوجها، مثلاً للتقوى والكرم والمحبة، كانت تعيش في ضوء تعاليم أبيها الروحية: العيش على القليل وطلب كل شيء من الواحد الأحد وإعطاء كل شيء من نفسها للآخرين.

بعد سنوات، وفيما كانت جالسة بقرب أبيها، الذي كان في حالة احتضار، بكت بكاءً شديداً عندما همس في أذنها، إن الله دعاه إليه وأنه حان وقت ذهابه، وابتسمت ابتسامة السعادة، بعد بضع دقائق، عندما أسرَّ إليها - هذا الأسرار، المليء بالحنان كان يكشف على ما يبدو عن جوهر هذه العلاقة بين الأب وابنته - أنها ستكون أول من يلحق به من أهله.

نشأت عائشة - رضي الله عنها - زوجة النبي ﷺ، أيضاً على مثال محمد ﷺ وأحاديثه، كان كل شيء يقود إلى تعليم روحي، وقد أصبحت لاحقاً مصدراً للمعلومات عن شخصية الرسول ﷺ وموقفه في حياته الخاصة والتزاماته الاجتماعية، فقد روت كيف أن محمداً ﷺ كان يهتم

بتوقعاتها ورغباتها عندما جاءت إلى بيته في المدينة، رغم صغر سنها في ذلك الوقت، كان اللعب جزءاً من حياتهما، ولم يمتنع محمد ﷺ أبداً عن المشاركة فيه أو عن السماح لها بإشباع فضولها، كما حدث عندما زاره وفد من الحبشة، فقد قام الحبشيون بألعاب مختلفة ورقصات تقليدية في فناء دار النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يقف على عتبة مسكنه، متيحاً المجال لزوجته لمشاهدة الألعاب بحرية من خلف كتفه⁽²⁹⁾. وقد تحدثت كثيراً عن الطابع الخاص لاهتمامه بها وعن تعابير حنانه وما كان يتيح لها من حرية في حياتها اليومية، وتدل محتويات الأحاديث النبوية التي روتها لاحقاً على مدى ما كان يحدثها به النبي ﷺ ويتحدث معها ويعبر لها عن حبه وحنانه، فقد كان يقوم أمامها - عبر سلوكه إزاء زوجته الذي كان قدوة - بإصلاح عادات المهاجرين والأنصار.

نزل الوحي بالآيتين المتعلقةتين بلباس النساء في السنة الثانية للهجرة تقريباً⁽³⁰⁾. كان الخمار عبارة عن قطعة من القماش تضعها النساء فوق رؤوسهن ويلقن أطرافها على ظهورهن: وقد أمر القرآن النساء المسلمات بأن يضربن بالنهايات إلى الأمام لتغطية صدورهن بحيث تتم تغطية حناجرهن، وقد أطاعت زوجات النبي ﷺ، مثل بقية النساء، ذلك الأمر. ولم يتم تحديد وضعهن بوصفهن «زوجات النبي» إلا بعد سنتين، وذلك كي لا يخاطبن الرجال إلا من وراء حجاب، وقبل نزول الآيات التي تأمر زوجات النبي ﷺ بأن يقرن في بيوتهن بعيداً عن أنظار الرجال، تصرف عائشة - رضي الله عنها - مثل بقية النساء الأخريات وكانت تظهر في الحياة العامة للمدينة. وقد أشركها النبي ﷺ وأراد أن يفهم أصحابه، من خلال الاقتداء بها، الدور الذي تقوم به النساء، ولا سيما زوجاتهم، في الحياة اليومية وفي الحياة العامة.

في يوم من الأيام دعا جار فارسي النبي ﷺ لتناول الطعام عنده، وسأل النبي ﷺ: «وماذا عنها؟» مشيراً إلى زوجته عائشة - رضي الله عنها .

فأجاب الرجل بالنفي، إشارة منه إلى أن الدعوة كانت موجهة إليه وحده، فرفض محمد ﷺ الدعوة، ودعاه الجار ثانية بعد فترة من الوقت، وسأل النبي ﷺ ثانية: «وماذا عنها؟»، وأجاب الفارسي بالنفي، ورفض محمد ﷺ الدعوة ثانية. ودعاه الجار للمرة الثالثة، وعندما سأل النبي ﷺ: «وماذا عنها؟» أجاب الرجل بالإيجاب، فقبل النبي ﷺ الدعوة وذهب إلى بيت جاره مع عائشة - رضي الله عنها - ⁽³¹⁾. فمن خلال اتخاذ المواقف الثابتة، كان النبي ﷺ يصلح العادات والممارسات التي كانت منتشرة لدى العرب والبدو في الجزيرة دون مهاجمة تقاليدهم.

كانت لعائشة، ولخديجة قبلها - رضي الله عنهما، بل لجميع زوجات النبي ﷺ وبناته وجود في حياته، وكن نشيطات في الحياة العامة ولم يخلطن أبداً الاحتشام بالتوازي عن المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي أو حتى العسكري.

فقد منحهن النبي ﷺ وسائل الحياة والتطور والإعراب عن أنفسهن ويمارسن النقد وتجنب الحياء الزائف وكن يتحدثن في المواضيع الحرجة ذات الصلة بالمرأة وجسمها ورغباتها وآمالها، وفي سنوات لاحقة أعادت عائشة - رضي الله عنها - إلى الأذهان باحترام وإعجاب تلك الجراءة الفكرية لدى نساء الأنصار اللواتي، كن، بخلاف النساء المكيات، يجرؤن على التعبير عن أنفسهن ويسألن أسئلة مباشرة: «بوركت نساء الأنصار»

لم يمنعهم حياؤهن عن طلب العلم (بشأن دينهن) ⁽³²⁾. وكانت هي قد تعلمت بالطريقة نفسها على يد النبي ﷺ: فقد كانت موجودةً عند نزول الوحي، وبقيت إلى جانب النبي ﷺ عند تبليغه للرسالة أو تقديمه التوصيات والنصائح، أو حين كان بمفرده يعيش دينه في معزل عن الناس، كانت تصغي وتسال وتحاول أن تفهم أسباب ومعنى تصرفات زوجها ومواقفه، ولقد بلغنا، بفضل ذاكرتها وذكائها وعقلها النقدي، ما يقدّر بألفي حديث ونيّف، وكانت دائماً تصحح الروايات الصادرة عن الصحابة الآخرين.

كان ما أظهره النبي ﷺ وعائشة - رضي الله عنها - من حب لبعضهما قوياً وعميقاً، ولم تكن عائشة - رضي الله عنها - تتردد في أن تروي موقفه المتصف بالحنان والحب في حياتهما اليومية، ودفع عاطفته واهتمامه، حتى في شهر رمضان، كما أنها روت الأسئلة التي كانت تطرحها على النبي ﷺ بشأن شدة حبه لها، وعن غيرها من خديجة - رضي الله عنها - المتوفاة وطريقة النبي ﷺ في إيجاد الوسائل دائماً لطمأنتها، لقد مكن وجود عائشة - رضي الله عنها - المحبة واليقظة والذكية إلى حد كبير - من رسم صورة دقيقة وعميقة عن الرسول ﷺ.

وفي السنة الخامسة أو السادسة للهجرة كانت ستعرض لأضعف موقف في حياتهما، ففي طريق العودة من غزوة بني المصطلق، لاحظت عائشة - رضي الله عنها - أنها فقدت قلادتها فذهبت تبحث عنها، في غضون ذلك، انطلقت القافلة دون أن تنتبه إلى غياب عائشة - رضي الله عنها - التي كانت عادة تركب في هودج متوارية عن الأنظار،

فأوصلها في خاتمة المطاف رجل، هو صفوان بن المعطل، الذي كان خلف الجيش. فبدأت الإشاعات تنتشر عن علاقاتها بصفوان واتهمت في خاتمة المطاف بأنها خانت النبي ﷺ وخدعته، تأثر النبي ﷺ كثيراً، لا سيما أن بعض الصحابة كانوا يشنون حملة ضد زوجته، ويشيعون الإفك عنها، ابتعد النبي ﷺ عنها مدة شهر، لكنها ظلت صامدة وظلت تؤكد براءتها. ثم نزلت آيات لا تثبت براءتها فحسب، بل أيضاً تدين القذف وتشويه السمعة والذين يفعلون ذلك، ووضع شروط صارمة جداً بشأن الدليل الذي يجب أن يقدم من أجل الحكم على سلوك للمرأة أو للرجل فيه وضع غامض أو مريب⁽³³⁾.

هذه المحنة أزعجت عائشة - رضي الله عنها - والنبي ﷺ في أول الأمر، لكنها عززت حبهما وثقتهما في خاتمة المطاف، وعلى صعيد أعم، أدركت الجماعة الإسلامية أن المحن قد تصيب أخيارهم كما أن الوحي دان بشدة النميمة والقذف وتشويه السمعة، مذكراً المسلمين بـ «حفظ ألسنتهم» كما قال النبي لاحقاً⁽³⁴⁾. وقد استعادت عائشة - رضي الله عنها - مركزها وأصبحت مرجعاً بشأن المعرفة والعلوم الإسلامية. وقد أوصى النبي ﷺ أصحابه بقوله: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء»⁽³⁵⁾. وظلت عائشة - رضي الله عنها - فوق الشكوك والريب، صادقة في إيمانها وحبها للنبي ﷺ، وأصبحت قدوة في ورعها وتقواها وفي التزاماتها الفكرية والاجتماعية، كانت نموذجاً رائعاً من حيث ما أظهره النبي ﷺ من حب لها: ففي غرفتها أراد النبي ﷺ أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وهناك جرى دفنه.

أحد

علاوة على الشؤون الخاصة وتعاليمه الروحية والاجتماعية ظل النبي ﷺ يقضاً بشأن أمن مسلمي المدينة، وكان يعرف أن قريشاً تستعد للنثار. وقد جاءه خطاب من عمه العباس - رضي الله عنه - يقول له فيه إن جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل ونيف قد انطلق متجهاً إلى المدينة، ولم يكن أمام النبي ﷺ سوى أسبوع واحد لوضع إستراتيجيته وتنظيم مقاومته. فقرر القيام على الفور بعقد اجتماع تشاوري ليعرف آراء صحابته بشأن المسألة، كان عليهم أن يختاروا بين البقاء داخل المدينة وانتظار دخول العدو، كي يوقعوه بكمين، وبين الخروج من المدينة ومواجهة العدو مباشرة في سهل قريب من المدينة. كان النبي ﷺ يرى، هو والكثيرون من أصحابه، بمن في ذلك عبد الله بن أبي سلول الذي لا يوثق به، أن ينتظروا العدو داخل المدينة، غير أنه لم يؤخذ برأيه في المناقشات، لاسيما من خلال معارضة الشبان من الصحابة الذين لم يشتركوا في معركة بدر: كانوا يأملون في أن يحققوا في المعركة الوشيكة ما حققه المقاتلون في بدر من فخار.

كان رأي الأكثرية الخروج من المدينة ومواجهة العدو وجهاً لوجه، فقبل محمد ﷺ القرار وانطلق على الفور إلى منزله ليرتدي عدة الحرب، لأنه لم يكن لديهم وقت يضيعونه، وقد شعر بعض الصحابة بالذنب ورأوا أنه قد يكون من الأفضل لهم أن يطيعوا النبي ﷺ. فجاؤوا إليه فيما كان خارجاً من بيته، واقترحوا أن يعاد النظر في القرار، وأنه يتعين عليهم قبول رأيه، فرفض رفضاً قاطعاً: فقد تم اتخاذ القرار بشكل جماعي وقد ارتدى عدة الحرب ولم يكن يوجد أي احتمال في الرجوع عن القرار.

انطلقوا إلى أحد، كان جيش المسلمين مكوناً من ألف مقاتل عليه مواجهة عدو مكون من ثلاثة آلاف، وفي طريقهم إلى أحد، قرر عبد الله ابن أبي بن سلول التخلي عنهم وتبعه ثلاث مئة من رجاله، وقد انحنى ابن أبي سلول باللائمة على النبي ﷺ لأنه سمح لأشخاص صغيري السن وليس لهم تجارب أن يؤثروا عليه، بدلاً من أن يتخذ هو القرار، الذي كان قراره هو أيضاً - بالبقاء في المدينة وانتظار العدو، كان تخليه مسألة خطيرة، حيث إنه خفض إلى سبع مئة مقاتل الجيش الإسلامي الذي لم يعد بوسعه تغيير إستراتيجيته والعودة إلى المدينة، كان نفاق ابن أبي سلول معروفاً وكان موضع شك في أنه قام بعدة خيانات: ذلك القرار، قبيل المواجهة، كان دليلاً إضافياً على ازدواجيته ونفاقه.

ومضى المسلمون قدماً، رغم أن عددهم قد انخفض وأدى إلى إضعافهم كثيراً، وفي الطريق، رأى النبي ﷺ ستة من الشبان تتراوح أعمارهم بين ثلاث عشرة وست عشرة سنة قد اختلطوا بالجيش، فقام على الفور بإرجاع أربعة منهم كانوا أصغر مما ينبغي، ووافق على إبقاء اثنين عمرهما خمس عشرة وست عشرة سنة أثبتا له على الفور أنهما أفضل في الرمي والقتال من الكثيرين من الرجال، كان قرار قبولهما في هذا الموقف صعباً لكن النبي ﷺ كان دائماً يصر على إبعاد الأطفال من مناطق المعارك، كجنود وكضحايا محتملين على السواء، وقد كرّر ذلك بشدة، كما سنرى، قبل إحدى الغزوات الأخيرة، وظلت هذه الرسالة، المتعلقة بأخلاق الحرب ثابتة في رسالته.

كان يتعين على جيش المسلمين إيجاد طريق غير ظاهر إلى أحد من شأنه أن يمكن الجيش من الاقتراب من أرض المعركة دون أن يتوقع العدو

قدومهم أو أن يكتشفهم، ومرة أخرى أولى النبي ﷺ ثقته لدليل غير مسلم استجاب لدعوته وكانت قدراته معروفة فقاد الجيش إلى مقصده. أخذ المسلمون مواقعهم وشرح النبي ﷺ إستراتيجيته القتالية لجنوده. فقد أمر الرماة بالبقاء على رأس تلة، على أن يقوم الفرسان والجنود بمهاجمة العدو مباشرة في السهل، وأمر الرماة ألا يغادروا أماكنهم في أي ظرف من الظروف، سواء أكان الجنود في الأسفل منتصرين أو منهزمين، وذلك لمنع قريش من إتيانهم من خلف التلة ومهاجمة الجنود من الخلف، كان هذا في الواقع، ما حاولت إحدى بعض مجموعات من قريش القيام به منذ أول المعركة، لكنهم قبلوا بوابل من السهام أجبرتهم على التراجع، كانت الإستراتيجية تعمل بنجاح.

بدأ القتال، وفي السهل كان الجنود المسلمون يحققون السيطرة شيئاً فشيئاً، وكانت قريش تتراجع وتتكدس خسائر فادحة، بينما أظهر المهاجرون والأنصار شجاعة تدعو إلى الإعجاب، وقد برز بين هؤلاء المقاتلين امرأتان بما أظهرتاه من بأس وقوة: أم سليم، وخاصة امرأة من الأنصار اسمها نسيبة بنت كعب — رضي الله عنها — كانت قد جاءت في أول الأمر تحمل الماء وتعتني بالجرحي، ونزلت في خاتمة المطاف إلى المعركة وأخذت سيفاً وقاتلت قريشاً⁽³⁶⁾.

ولم يقيم النبي ﷺ أبداً بدعوة أو نصح النساء بالقتال، ولكن عندما شاهد روح نسيبة المعنوية وبأسها في المعركة، أثنى على سلوكها ودعا الله أن يحميها وينصرها ويمنحها النجاح.

أصبح من الواضح أن المسلمين كانوا متفوقين ومنتصرين، رغم

النكسات وموت بعض الصحابة. كان حمزة رضي الله عنه، عم النبي صلى الله عليه وسلم هدفاً لثأر هند منذ الهزيمة في بدر. وقد تم تكليف وحشي، وهو حبشي من رماة الرمح، بمهمة واحدة وهي قتل حمزة رضي الله عنه، وهذا ما ركز جهده على القيام به: ففيما كان عم النبي صلى الله عليه وسلم منهمكاً في القتال، اقترب منه وحشي وقذف رمحه بدقة بالغة فأصابه وقتله على الفور. وجاءت هند لاحقاً تبحث عن جسم حمزة رضي الله عنه في ميدان المعركة وبعد أن مضت كبده وحقت بذلك ما نذرت من شرب دمه ثأراً لموت ذويها، أخذت تمثل به، فقطعت أذنيه وأنفه وعلقتها حول رقبتها⁽³⁷⁾.

ومع ذلك، أظهر سير المعركة أن النصر سيحالف المسلمين الذين ظلوا يدفعون إلى الأمام بينما كانت قريش تتراجع، تاركين خلفهم مطاياهم وحاجياتهم، رأى الرماة المتمركزين على التل مجرى الأحداث الذي أصبح لمصلحة المسلمين وأن النصر قريب، لاسيما الغنائم التي كانت ملقاة في متناول الجنود الآخرين، الذين كانوا، خلافاً لهم، يقاتلون في المقدمة. فنسوا أوامر النبي صلى الله عليه وسلم ودعوة قائدهم عبد الله بن جبير: ولم يبق على التل سوى عدد قليل من الرماة، بينما اندفع نحو أربعين رجلاً منهم إلى سفح التل، وهم قانعون بأن النصر قد تحقق وأنه يحق لهم أيضاً الحصول على حصة من الغنائم، وقد لاحظ خالد بن الوليد، الخبير بالتكتيك الحربي والذي كان يقود إحدى مجموعات قريش، حركة الرماة وقرر القيام على الفور بالانقضاض حول التل ومهاجمة الجنود والمسلمين من الخلف، ونجح في شن هجوم كماشة على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأدى ذلك إلى حدوث فوضى تامة وتفرق المقاتلون المسلمون في حالة من الفوضى الكاملة، فقتل

البعض وفر البعض الآخر، بينما ظل آخرون يقاتلون دون أن يعرفوا حقاً إلى أين يوجهون ضرباتهم، وقد تعرض النبي ﷺ للهجوم وسقط عن مطيته، وكسرت إحدى أسنانه وانغرست حلقات خوذته في اللحم الدامي لخدم. وانتشرت إشاعة بأن النبي ﷺ قد قتل، الأمر الذي زاد من حدة الفوضى بين المسلمين، ثم قام بعض الصحابة بحمله على مطيته ووفروا له الحماية بحيث مكنوه من تفادي مهاجميه، وتمكن المسلمون من الانسحاب من أرض المعركة، حيث كانت تزداد صعوبة رؤية ما كان يجري، وتجمعوا لمواجهة العدو ثانية، إذا دعت الحاجة لذلك، وبعد انتهاء القتال لم يقتل من قريش سوى اثنين وعشرين، بينما بلغ عدد القتلى سبعين بين المسلمين، الذين كان من الواضح أنهم هزموا في ساحة القتال كما هزموا رمزياً.

كانت لمخالفة الرماة للأوامر عواقب مثيرة، فقد استجاب الرماة إلى إغراء الثروة والربح وغلبت عليهم الممارسات السابقة من ماضيهم الجاهلي، فرغم أنهم تشربوا رسالة الإيمان بالله الواحد الأحد وبمبادئ العدل والعزوف عن مغريات الدنيا، إلا أنهم نسوا فجأة كل شيء عند رؤية الغنائم في المتناول، ففي تقاليدهم الوثنية كانت الانتصارات الحربية تقاس بمقدار الغنائم التي يجنيها المنتصرون، فهذا الجزء من كيانهم وثافتهم قد تغلب على تربيتهم الروحية، وكانت النتيجة أن المسلمين وقعوا في فخ إستراتيجية رجل عسكري فذ، هو خالد بن الوليد، الذي سوف يدخل في الإسلام بعد بضع سنوات ويصبح البطل الحربي للأمة الإسلامية. فتلك اللحظة في المواجهة التي جرت في أحد كانت درساً عميقاً: فالبشر لا يستطيعون أبداً التغلب التام على الثقافة والخبرات التي شكلت ماضيهم،

ولا يمكن أبداً إصدار حكم نهائي بشأن ما ستكون عليه خياراتهم النهائية. فقد وقع المسلمون فريسة لسمّة مؤسفة في عاداتهم الماضية، أما خالد بن الوليد فسوف يتحول من شأنه أن يحوّل الأحكام التي كانت قد صدرت بشأن ماضيه. «ما من شيء يدوم» هو درس في التواضع، «ويجب ألا يصدر المرء أحكاماً نهائية» هو وعد بالأمل.

نقلت قريش موتاهما وحاجياتها، وسأل أبو سفيان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن مصير النبي صلى الله عليه وسلم وتأكد من أنه لا يزال على قيد الحياة، وعندما رجع المسلمون بدورهم إلى أرض المعركة، رأوا الجثث التي تم التمثيل بها، وقد تأثر النبي صلى الله عليه وسلم تأثراً بالغاً لدى رؤية عمه حمزة رضي الله عنه. وفي لحظة غضب، قال إنه سوف يثار لحمزة رضي الله عنه ويمثل بثلاثين من جثث العدو في المواجهة المقبلة معه، لكن الوحي ذكره بالنظام والاعتدال والصبر: ﴿وَلَيْنَ صَبْرٌ لَّهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (38). أمر النبي صلى الله عليه وسلم باحترام أجساد الأحياء والأموات، وبعدم ممارسة التعذيب أو التمثيل أو التشجيع عليهما، وذلك باسم احترام الخلق وكرامة الإنسان (39).

هزيمة ومبدأ

عاد المسلمون إلى المدينة، متخفين بالجراح وبخيبة الأمل والأسى جراء ما أصابهم: كان عدد قتلاهم كبيراً وكانت هزيمتهم ناجمة من عصيان الأوامر بدافع الجشع وطلب الغنائم، وقد أصيب النبي صلى الله عليه وسلم بجراح وكانت قريش بالتأكيد ستستعيد كبرياءها ومركزها في الجزيرة العربية. عند الوصول إلى المدينة سارع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطلب من الذين اشتركوا في معركة أحد -

وحتى الجرحى منهم - أن يستعدوا لحملة أخرى ورفض عرض عبد الله بن أبي في أن ينضم إليهم، حيث إنه فر من الجيش قبيل المعركة، لكن النبي ﷺ لم يخبر أحداً بنواياه الحقيقية، فذهب إلى الحمراء، وعسكر هناك، وطلب من كل واحد من رجاله أن يعد عشر شعلات من النيران ويشعلها في الليل، هذه النيران أوحى للمشاهدين من بُعد بوجود جيش ضخم يتحرك.

قام محمد ﷺ بهذه المناورة ليؤحي إلى قريش بأنه يستعد إلى رد فوزي وأن مهاجمة المدينة ستكون محفوفة بالخطر، وأرسل مبعوثاً (وثنياً أيضاً) إلى أبي سفيان لإبلاغه بهذا الحشد الخارق للجنود المسلمين، وقد ترك ذلك أثراً كبيراً في نفس أبي سفيان، رغم أنه كان عازماً على استغلال ضعف المسلمين وتوجيه ضربة نهائية لهم في قلب المدينة، إلا أنه غير رأيه وقرر عدم مهاجمة المدينة، وانتهى الأمر هنا: غادرت حملة محمد ﷺ الحمراء بعد ثلاثة أيام وعادت الحياة إلى مجراها.

في الأيام التي تلت نزل وحي على النبي ﷺ بشأن معركة أحد، ولاسيما بشأن الخلافات المتعلقة بالخيارات الإستراتيجية وعصيان الأوامر والهزيمة، ثم بموقف النبي ﷺ. فبقي النبي ﷺ رابط الجأش ومتعاطفاً مع أصحابه الذين انساقوا وراء رغبة المغانم وعصوا أوامره، روى الوحي الحدث وأكد ما قلناه في بداية هذا الفصل، بشأن المزيج المتواصل بين احترام المبادئ وقوة شخصية النبي ﷺ ولطفه:

﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (40).

لقد بدأت سلسلة الأحداث التي أدت إلى الهزيمة بالقرار الذي تم اتخاذه خلافاً لرأي النبي ﷺ، ثم جاء، بالطبع، عصيان الأوامر من جانب الرماة، لقد أكد القرآن هنا مبدأ الشورى مهما كانت النتائج: هذا الوحي ذو أهمية حاسمة، فقد ذكر أن مبدأ المشاورة وقرار الأكثرية يجب ألا يكون موضع نقاش ويجب احترامه رغم الاحتمالات التاريخية والأخطاء البشرية في اتخاذ القرارات، لذا، فالمسلمون هم الذين «يصرفون شؤونهم بالتشاور فيما بينهم»، وهذا المبدأ يجب أن يبقى سارياً رغم أن طرق إنفاذه لا بد أن تتغير مع الزمن ومن مكان لآخر⁽⁴¹⁾.

وفيما يتعلق بعصيان الرماة للأوامر، فقد بين الوحي أن صفات النبي ﷺ الخلقية هي التي مكنته من التغلب على الموقف وإبقاء الصحابة حوله، فلم يكن يشعر بالمرارة ولا بالقسوة ولم يحكم بإدانتهم لانسياقهم وراء الجشع المنبثق عن عاداتهم الماضية، فقد خفف لطفه عنهم ألهم ومكنهم من اشتقاق عدة دروس من تلك النكسة: فقد كان الله مع قدرهم بقدر ما كانوا هم يشعرون بأنهم مسؤولون عنه، وكما أنه لا يوجد مجال للجبرية في تعاليم الوحي، فإنه لم يكن هناك مجال للتفاوض الهوائي بأن طريقهم سيكون سهلاً لمجرد أنهم يقاتلون في سبيل الله، بل على العكس، فإن الإيمان يقتضي شدة الحرص من حيث احترام المبادئ، والمزيد من المشاعر في العلاقات الإنسانية، والمزيد من الحذر بشأن خطر التواكل.

لقد كانت معركة أحد ذلك الدرس في الهشاشة، وقد ذكر النبي ﷺ الجريح، بعد المعركة، أن أي شيء قد يحدث: فقد عبر دمه عن بشريته الصارخة وأعادها إلى الأذهان.